مجلة العلوم الانسانية الدولية، ١٤٣٤/٢٠١٣ هـ.ق، العدد ٢٠ (٢) ١٧- ٣٦

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:42 IRDT on Monday August 31st 2020

التقدّم التاريخي من منظار الأستاذ مطهري و الدكتور شريعتي
(دراسة تطبيقية)

غلامرضا جمشيديها[١]، محمد سجاد صفار هرندي[٢]

تاريخ الوصول: ١٤٣٤/٦/٢٤ تاريخ القبول: ١٤٣٤/٨/٢٧

في هذا المقال حاولنا من خلال استيعاب و شرح رؤية مفكّرِين معاصرين مهمّين، هما الأستاذ مرتضى مطهري و الدكتور علي شريعتي، بالنسبة لـــ "فكرة التقدّم التاريخي" أن نقوم بدراسة فصلٍ هام من تاريخ توجّهات الإيرانيين الفكرية للتجديد. "فكرة التقدّم التاريخي" باعتبارها أبرز أصول الفكر الإجتماعي الحديث، حيث تتضمن الاعتقاد بمسيرة واحدة ذات طابع صعودي و إصلاحي في تاريخ المجتمع البشري. ومن الطبيعي في ظل هذا المنظار، أن تُصوّر الحضارة الغربية الحديثة كرائدة و حاملة للّواء و في قمّة المسيرة المذكورة.

وحدانية تاريخ البشرية عند مطهري و شريعتي تأتي بشكل فرضية مقدّمة. لكنّ هناك مفارقات في نوعية التّلقي بالنسبة للتقدّم. موقف مطهري بالنسبة لفكرة التقدّم يمكن لنا أن نعتبره "قبول مشروط". إنّه يقبل التقدّم في المجالات العلمية والتقنية، و أيضاً في البنية و التكتلات الاجتماعية؛ لكنّه في الأبعاد الإنسانية و الأخلاقية يرفضه جملةً و تفصيلاً. في أفكار و مؤلفات شريعتي بالنسبة للتقدّم و التكامل إنّنا نواجه فهمين غير منسجمين أو علي الأقل "في الظاهر" غير منسجمين. فإحدي هاتين النزعتين تحتضن فكرة التقدّم في ظل الرواية الرئيسية بمثابة حقيقة واضحة و بديهية؛ و النزعة الثانية تنفي هذه الفكرة من أساسها، و حتي أنّها تقوم بتفكيک المفاهيم الحديثة كالتقدّم و التطور. في الوقت ذاته، كلاهما يعتبران الحضارة الإسلامية و الفترة الذهبية فصلاً من فصول كتاب "تقدّم و تطور الحضارة البشرية"، و في سياق أو طيلة فكرة التقدّم، يعتقدان بتفسير ديني من التاريخ.

الكلماتالرئيسة: مرتضىمطهري، عليشريعتي، الوحدة التاريخية، فكرة التقدّم،الحضارة الإسلامية.

---

١. أستاذ مشارك في قسم علم الاجتماع بجامعة طهران. gjamshidi@ut.ac.ir

٢. طالب دكتوراه في قسم علم الاجتماع بجامعة طهران. sjjadharandi@yahoo.com

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:42 IRDT on Monday August 31st 2020

١. المقدمة

كل تاريخ تطورات الفكر في إيران الحديثة يمكن لنا أن نعتبره قصة ذات أجوبة متعدّدة للسؤال عن علاقتنا بالتجدّد. الهزيمة المزرية في حروب إيران و الروس، دعت النخب وحتى عامة الناس للتفكّر في سرّ و حقيقة التخلّف. ففي إطار هذه التفكّرات تمسّكت الأجيال الأولى للنخب الإيرانية بمفهوم التقدّم. وما وقع في الغرب في غضون قرنين أو ثلاثة قرون وُصِف بمصطلح التخلّف باعتباره تقدّما للفهم و الوضع الراهن لإيران. و في هذا الإطار، كان من الطبيعي أن يُلتفَت إلى التجدّد (أي ما وقع في الغرب) بمثابة أسوة و قدوة، و يُسمَح للنخب و المثقفين أن يسعوا الى الحصول عليه في شتّى المجالات.

هذا الإتجاه العام بالرغم من التحدّيات السياسية و الاجتماعية، و أيضاً وجود تيارات معارضه (كهواة التراث)، كانت له سلطة ملحوظة على الجو الفكري الإيراني ما يقارب مئة عام. منذ بداية عقد ١٣٤٠ تهيّأت الأرضية للحوار في إيران، بواسطة تجربة الانقلاب الأمريكي ٢٨ مرداد ٣٢، و قمع انتفاضة ١٥ خرداد، و أيضاً ظهور اتجاهات نقدية بالنسبة للتجدّد في الغرب، و الانتصارات المتتالية للانتفاضات المضادّة للاستعمار في شتى بقاع العالم. و هذا بمعنى ظهور و تغلّب الحوار تدريجياً، الحوار الذي يعتني بالغرب ليس باعتباره أسوة بل بمثابة "آخر" أو "غير". (كچويان، ١٣٨٤: ١١٣-١٣٩) في هذا الحوار الجديد، فضلاً عن ذكره لجزء عظيم من مظاهر و آثار دخول التجدّد في إيران تحت عنوان "التغرّب"، يُوصي و يروّج للرجوع إلى الهوية و المصادر الدينية و التراثية. في الوقت ذاته، هذه الوصية لا تعني النفي الكامل و المطلق لإنجازات التجدّد، بل ترحّب بالميزة الإنتقائية و الواعية لها. هذا الاتجاه الخاص بالتجدّد و الغرب، يحتوي علي تعقيدات و شكوك نظرية و علمية، إهتمّ بها أصحاب الرأي في العقود الأخيرة.

الأستاذ الشهيد مرتضى مطهري[١] والفقيد الدكتور علي شريعتي[٢] كانا في الغالب يُعرفان بشخصيتين بارزتين خاضتا دوامة هذا الحوار الخطابي. بالطبع إستيعابهما لحقيقة التجدّد، مهّد الأرضية المناسبة للفهم الصحيح لهذا المشروع الفكري. ونستطيع أن نتناول هذا الأمر من وجهات نظر مختلفة. ففي هذا المقال سعينا في ظل التلقي التاريخي و الفلسفة التاريخية للأستاذ مطهري و الدكتور شريعتي أن نقترب لفهم رؤيتهما بالنسبة للتجديد. و سوف نقوم تحديداً بدراسة نظرتهم لما تُسمّى بـــ "فكرة التقدّم"، و التطوّر، أو التكامل التاريخي، و التي تُعتبَر إحدي القراء ات العملاقة لإحداث التجدّد و الفكر التجدّدي.

١-١. الأسئلة الأساسية

من أبرز الأسئلة في هذه المقالة التي نراجع ضمنها نص فكرة مطهري و شريعتي: هل نحن في تاريخ البشرية نواجه نوعاً من الوحدة؟ بعبارة أخري، هل هناك منطلق واحد يربط كل تاريخ البشرية في أقوام و مجتمعات مختلفة مع بعضها البعض و يوحّدها؟ و إذا وُجِدَ، هل هذا المنطلق يكون تصاعديّاً؟ أساساً ما هو موضوع هذا المنطلق؟ هل مسيرة تاريخ البشرية من حيث الموضوعات تجد أحكاماً متفاوتة؟ أساساً ما هي المغامرة المركزية و الأساسيّة لتاريخ البشرية؟ من المنظار الديني، إلى أي مستوى نستطيع أن نعتقد بوجود مسار و عملية التكامل و التقدّم في تاريخ البشرية؟

١.الاستاذ مرتضي مطهري، فيلسوف و مفكّر ايراني معاصر (١٢٩٨-١٣٥٨)

٢.الدكتور علي شريعتي، مفكّر و عالم إجتماعي ايراني معاصر (١٣١٢-١٣٥٦)

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:42 IRDT on Monday August 31st 2020

من البديهي أنّ هذه الأسئلة تنتج عن إطار مفهوم "تقدّم التاريخ" الذي نحن بصدد دراسته في هذا البحث. فلهذا، قبل الخوض في صلب الموضوع، نحتاج إلى لمحة عابرة بالنسبة لهذا الإطار المفهومي.

١-٢. الإطار المفهومي حول فكرة التقدّم

الاعتقاد برؤية خاصة نحو التقدّم و التطور في تاريخ البشرية خلال الآونة الأخيرة تحوّل إلي مصداقية عامّة و متداولة حتي لدى العموم. لكنّ هذه الفكرة التي شاعت في عصرنا بصورة عامّة، في الواقع ليس لها خلفية ملحوظة في التاريخ. "التقدّم" بمعنى قدوة للتحوّل المبرم و الذي لابدّ منه في التاريخ نحو الأفضل و الأحسن، في الأساس مصطلح جديد. هذا الأمر الجديد له شيوع و إقبال واسع إلي حدٍّ كانت في أكثر الأحيان تُهمل هذه الحقيقة التي تقول لا يُوجَد استيعاب لحراك التاريخ حتي بضعة قرون سابقة.

فكرة تقدّم التاريخ في المرحلة الأولي تنصّ علي هذا الأصل الرئيسي و هو عبارة عن "وحدة تاريخ البشرية". وحدة تاريخ البشرية بهذا المعني أنّ ماضي الحضارات و المجتمعات المختلفة و تحولاتها تتعلّق في الختام بقصة واحدة و هي "التاريخ العام للبشرية". دون الاستناد إلي أصل وحدة تاريخ البشرية، لا يمكن الكلام عن فكرة التقدّم مطلقاً. فكرة التقدّم تصرّح بوضوح أنّنا من خلال تعاقب الحضارات المختلفة و التطورات المرفقة معها، نستطيع أن نصل إلي مرحلة من النمو و الترقي، ذلك الترقي الذي يقع في مسيرة واحدة، وجميع الحضارات و مراحل التاريخ يحملان جزءاً من ثقله.

خيال وجود التقدّم التاريخي، في بداية الأمر نشأ عن تصوّر نوع من التقدّم في مجال العلم. ففي القرن السابع عشر ظهرت فكرة التقدّم في ظل تكوين العلوم الحديثة و التطورات الميكانيكية و الفلكية في مشهد الفكر و المعرفة. هذه القضية حدثت مع حداثة دكارت و علي الأخص نيوتون. (پولارد، ١٣٥٤: ٢٣-٢٤). الهزائم المتعاقبة للعلوم القديمة في الفلك، و الميكانيك، و الفيزياء مهّدت الأرضية لظهور عصر جديد. العلم الحديث بعرض صورة ميكانيكية من الوجود، يؤكّد علي إستناده إلي الانضباط السرمدي، و في الوقت ذاته، يعرض نفسه باعتبار انّ له قابلية ملحوظة في الشرح و التنبؤ بالنسبة للظواهر الطبيعية. في ظل هذا الأمر تشكّلت لأول مرّة فكرة التغيير نحو تسامي العلم دون توقف. لكنّ في تلك الفترة لم تكن قد وجدت فلسفة جامعة للتقدّم. هذه القضية بعد حين، في القرن الثامن عشر، حدثت في ظل تيار نهضوي يُعبّر عنه "بالتنوير".

شاع في بداية القرن الثامن عشر مفهوم التقدّم في العلم و التكنولوجيا. و في نهايته في شتي المجالات من الثروة، و الحضارة، و المنظمة الاجتماعية، و الذكاء، و الإنسانية حتي الفن، و الأدب ما كانت الساحة تُعتبَر خارج قصة التقدّم العامة. (همان: ٣١) من الأصوات الرنّانة في عصر التنوير هي أنّ تاريخ قصة حركة التعليم كان بصورة تصاعدية و متطوّرة، و نحن نعيش في أفضل فترة من التاريخ.

إنّ جزءاً هامّاً من هذا التغيير يبدأ بعصور كتابة التاريخ الذي يسعي من وراء تاريخ الحروب و فتوحات الملوك إلى أن يتطرّق إلى التطورات التاريخية، و العلمية، و الإقتصادية. التطرق إلى "تاريخ العالم" و المراحل التاريخية (التي ناقشها لأول مرّة ويكو الإيطالي) إنتشر بصورة واسعة، و أدخل مونتسكيو الفرنسي الصورة التكاملية في فكرة مراحل التاريخ. (همان: ٣٧-٣٩)

في منتصف القرن الثامن عشر، "أصحاب الموسوعات"

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:42 IRDT on Monday August 31st 2020

الذين كانوا في أكثر الأحيان من أهالي العلوم الطبيعية، استناداً إلى التطور السريع للعلوم، أبدلوا فكرة التقدّم بـــ "الإيمان". و في أواخر القرن، ظهرت أعلى نسبة للتفائل بالتقدّم في أعمال أشخاص كـــ "تورغو" و "كندرسه" اللذينِ يعتبران التقدّم من ضمن القوانين الطبيعية المسيطرة على العالم. (همان: ٤٣-٧٠)

فكرة التقدّم في مراحل مختلفة، و من جهات متعددة و متنوعة، تعرّضت للنقد. لكنّها في المجموع انتقلت للقرون التالية باعتبارها جزءا هامّا من تراث التنوير. و في ما بعد مرّة أخرى إنتعشت في إطار مفاهيم و نظريات كـــ "نظرية التطور"، "الاستعمار"، "التجديد"، "التنمية" و "العولمة". (كچويان، ١٣٨٦: ١٦-٢٩)

وفقاً لهذا نستطيع أن نعتبر فكرة التقدّم، أبعد من مجرد نظرية ضمن تاريخ الحضارة، و جزءاً من فكرة الغرب الحديث، و من العناصر الأساسية الناتجة عن الوعي الحضاري. هذا الأمر بالنسبة للغرب ليس فقط يتضمن اعتقادهم بريادة تاريخ البشرية، بل إنّهم يعتبرون الثقافات و الحضارات الأخري ناقصة. تعبير سيدني بولارد حول فكرة التقدّم تحكي جيداً عن مكانتها في جغرافية الفكر و الثقافة الحديثة:

« مفهوم التقدّم مرساة أخلاقية للإنسان الحديث الذي لا يريد و لا يستطيع أن يبني حياته علي الأساطير و المعتقدات القديمة. ... لكنّ هذا لا يعني أنّ فكرة التقدّم ليس لها حقيقة. كثرة الثروة، و تطوير المعرفة، و زيادة هيمنة البشر علي الطبيعة كلّها واقعية، لكنّ في نفس الوقت فكرة التقدّم جوابٌ لحاجة الإنسان المعاصر النفسية» (پولارد، ١٣٥٤: ٢١٥-٢١٦)

١-٣. خطة البحث

انتهجنا في هذه الدراسة طريقة الإحالة أو الاستناد إلي المكتبة وفقاً لما تتطلّبه طبيعة الموضوع النظرية. في الواقع، دراسة آراء و أفكار كلا المفكّرَينِ حول مسألة واحدة لا يتمكّن لنا إلّا من خلال هذه الطريقة. فمن هذا المنطلق، إنّنا بعد إحصاء بعض العناصر و المقومات الخاصّة بمفهوم التقدّم و التكامل التاريخي، تطرّقنا إلي البحث في محتويات أعمال مطهري و شريعتي. في المرحلة الأولي قمنا بدراسة رؤيتهما بالنسبة لطبيعة التاريخ و وحدته اللتينِ يعتبران تمهيداً لفكرة التقدّم، ثمّ بصياغة سيناريو جامع من رؤية كلٍّ منهما في باب مفهوم التقدّم حول المحاور و الجهات المقتضية. و بواسطة هذا الأمر، كرّسنا جلّ إهتمامنا بصورة مستقلّة علي محورينِ أساسيينِ لهما صدي عميق في أعمال كلا المفكّرين؛ الأول: رؤيتهم بالنسبة للحضارة الإسلامية، و نسبتها مع فكرة التقدّم؛ و الآخر: فلسفة التاريخ الديني، و الاعتقاد بالمعني الديني للتاريخ، إمّا في عرض مفهوم التقدّم، و إمّا في طوله. في الختام قمنا بالاستنتاج من مجموعة هذه المحاور بالنسبة إلي المسألة الأصلية.

١-٤. خلفية البحث

لقد كُتبت بحوث، ورسائل، ومقالات عديدة حول موضوع تطبيق ومقايسة أفكار الشهيد مطهري و الدكتور شريعتي في شتّي الموضوعات و المسائل. (علي سبيل المثال أنظر إلي: الهي تبار، ١٣٩١؛ صادقي، ١٣٨٣؛ نوروزي، ١٣٨٢؛ زماني؛ ١٣٨٩ و ...) لكنّ مقايسة رؤيتهما في فلسفة التاريخ، و علي الأخص حول فكرة التقدّم و التكامل التاريخي ليس لها سابقة، و هذه المقالة تُعتبر أول دراسة في هذا الصدد.

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:42 IRDT on Monday August 31st 2020

وحدة تاريخ البشرية من منظار مطهري و شريعتي

كما مرّبنا آنفاً أنّ الإعتقاد بوحدة تاريخ البشرية من الملزومات و المقدمات الأساسية للاعتقاد بفكرة التقدّم و التكامل التاريخي. لهذا نبدأ دراسة رؤية مطهري و شريعتي بمبحث فهمهما و استيعابهما بالنسبة لهذه المقدمة.

لمحة عابرة على رؤى الفلسفة التاريخية لمطهري و شريعتي تحكي بوضوح أنّهما يعتقدان بوحدة تاريخ البشرية و يعتبرانه في مسيرة واحدة. بالنسبة لمطهري، كثرة استخدامه للتعابير العامّة كـــ "تاريخ البشرية" (علي سبيل المثال: مطهري، ٢:٤٣٥؛ ١٤:٣٠٠؛ ١٤:٤٦١؛ ١٨:٦٩؛ ٢١:٤٧٤؛ ٢٥:٢٦٥؛ ٢٧:٧٦٧)، و "الحضارة البشرية" (السابق، ٢:١٦٩؛ ٦:١٦٩؛ ١٥:٤٨؛ ١٦:٢٩؛ ١٩:١٠٧؛ ٢١:٢٣٨؛ ٢٧:٢٦٥)، و "الجامعة البشرية" (السابق، ٢٥:٥١٠) تدلّ علي هذا التحليل. و لو أنّ بحوثه الخصبة في حقل فلسفة التاريخ، التي تسأل عن حقيقة التاريخ، طريقه، و معناه، تدلّ أيضاً بصورة ضمنية علي هذا المعنى. (السابق، ١٥:٤٠؛ ١٥:٢٣٥؛ ١٥:٨٤٤؛ ٢٤:٤٢٩) الجانب الآخر من هذا التلقي نستطيع أن نجده في نوعية نظرته إلي الحضارة الإسلامية و نسبتها إلي سوابق و لواحق ما يسمّي بتاريخ الحضارة البشرية. (سنتناول بحث الحضارة الإسلامية في مبحث لاحق من هذه الدراسة).

تطرّق شريعتي إلى البحث في باب وحدة تاريخ البشرية بشرح و تفاصيل أكثر. إنّه فضلاً عن إستخدامه للتعبيرات المماثلة (تاريخ البشرية، و الحضارة البشرية، و ....) يتحدّث بصورة واضحة عن فكرة وحدة تاريخ البشرية و أنّها «للتاريخ مسيرة معيّنة، و لا معني لتعدّد التاريخ. التاريخ عبارة عن قافلة تنطلق من بداية معيّنة، تمرّ بمحطّات معينة، و تطوي طريقاً معيناً، تمشي في جهة معينة و غير قابلة للإنعطاف، و في هذه المسيرة المجتمعات، و الثقافات، و المذاهب في حالة ولادة، موت، ضعف، اضمحلال و تركيب. في هذا الموت و الزوال شئ واحد يبقي ثابتاً، و هو الطريق العلمي للتاريخ.» (شريعتي، ٣٢-١١:٣١)

من هذا المنظار، برأيه أفضل تعريف للتاريخ هو «أن يصبح الإنسان علماً». (السابق) نظرة شريعتي للحضارة تؤيد رؤيته الأحادية بالنسبة لتاريخ البشرية. في هذه النظرة، لا نستطيع تحديد الحضارة البشرية بإضافات و نعوت كالغربية، الإسلامية، الإيرانية، اليابانية، الصينية، و .... . ما يسمّي اليوم بالحضارة الغربية، وما عُرِف سابقاً بالحضارة الإسلامية، علي الإطلاق فصول من كلية تكاملية تحت عنوان الحضارة البشرية. (السابق، ٢٣:١٤)

في الواقع، اعتقاد مطهري و شريعتي بوحدة التاريخ و الحضارة البشرية إلي حدّ ما نوع من التمهيد و إصالة الموضوع في ساحة التاريخ. هذا الأمر في البداية و ببساطة يعود إلي هذا السبب أنّ في الأساس الإتجاهات المتأخرة التي قامت بالتشكيك في فكرة وحدة التاريخ، ليس لها عهدٌ في أجواء الفكر الإيراني في عقدي ١٣٤٠ و ١٣٥٠ (اللتَين كانتا المرحلة الأساسية للنشاط الفكري لكليهما). في الحقيقة، كانت هذه البحوث في تلك الفترة بديعة و جديدة حتي في منشأها الأصلي (الغرب)، و كان غير متوقّع أنّ المفكرينَ الإيرانيينَ كانوا بعيدين كل البعد عن هذا السؤال و المسألة. لكنّ هناك عاملاً مهماً آخر يشارك في هذا النهج، و هو التناسب التام بين فكرة وحدة تاريخ البشر و التعاليم و الاتجاهات الدينية. مطهري و شريعتي بصفتهما مفكّرَينِ لهما انتماءات و مبادئ دينية يعتقدان بـــ "بشر واحد" (لا "تعدّد البشر"، كما تزعم الاتجاهات الحداثية و ما بعد التجدّد)، و من الطبيعي أن يعتبران التاريخ كرواية من تطورات الحياة و صيرورتها. في النظرة الدينية، إضافة إلى أنّها تربط مباني الفطرة الإنسانية

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:42 IRDT on Monday August 31st 2020

المشتركة بين جميع أفراد البشر على طول التاريخ و عرض الثقافة و الجغرافيا ببعضها البعض، حيث تُوجد هناك رواية تاريخية صريحة و شفّافة و هي أنّ حياة الإنسان تبدأ بخلقة النبي آدم و زوجته حواء و هبوطهما إلى الأرض، و تستمر بحياة أولادهم (بني آدم) إلى يومنا هذا، و ترى هذا جميعاً في النهاية ينطلق نحو مقصد و نهاية خاصة (قيام المنجي الموعود). خاصة الإشارات الصريحة و الإحالات العديدة إلى هذه الرواية التاريخية للدكتور شريعتي تحكي عن أهميتها الخاصة. (شريعتي، ١٠١:٢٣؛ ١٢٤-١٢٣:٢٣) و بناءاً على هذا، فكرة وحدة تاريخ البشر تُوجَد في رؤية مطهري و شريعتي بصورة فرضية مقدّمة و ممهّدة لقبول فكرة التقدّم و التكامل التاريخي.

مطهري؛ من التقدّم العلمي إلي الزوال الإنساني

مسألة التقدّم و التكامل التاريخي من الموضوعات التي اهتمّ بها الأستاذ مطهري في أعماله و محاضراته العديدة. وجزءٌ من هذا الاهتمام يعود إلي إتجاهه النقدي بالنسبة للآراء المطروحة من قبل التيار الماركسي في إيران. في الحقيقة نقد المبادئ الجدلية و المادية في التاريخ تشكّل جزءاً هامّاً من بحوث مطهري في حقل فلسفة التاريخ. و من خلال التعليق و ضبط هذا النقد الواسع نستطيع أن نصل إلي المحاور الأساسية التي عالجها في سياق فكرة التقدّم.

يمكن لنا أن نعتبر الموقف العام لمطهري بالنسبة لفكرة التقدّم و التكامل التاريخي بـــ "القبول المرهون". هو أنّه يعتقد في المجموع، حركة التاريخ انطلاقة نحو التكامل و التطور. و لو أنّ ليس مستقبل جميع المجتمعات في كل الظروف أفضل من ماضيها، و المجتمعات تسير دون توقّف و باستمرار نحو الاعتلاء و السمو، ولا يوجد انحطاط في هذا الصدد. لاشك أنّ المجتمعات تتوقّف، لها انحطاط و تراجع، تميل إلى اليمين أو اليسار، و أخيراً لها سقوط و زوال.

لكنّ المجتمعات البشرية في المجموع تطوي مسيرة متعالية.» (مطهري، ٢:٥٠٤؛ أيضاً انظر: ١٥:٢٣٥؛ ٢٢:٦٠٧)

بهذه النظرة يبين مطهري مع أنّ في التاريخ نوعاً من المسار التكاملي و التقدّم العام، لكنّ هذا لا يعني أنّنا نتلقّي كل حدث و تغيير في ظل هذا التطوّر. خلافاً للأصل الثالث في الجدلية (ديالكتيك) الذي قام الماركسيون بالإعلان و الترويج له، فلا نستطيع أن نقبل كل شيء لمجرّد إنّه جديد، و رفضه لمجرّد أنّه قديم فقط. (٢١:١٤٠) تعبيره الرائع هو إنّنا لانعتقد بعصمة الزمان (السابق:٢٨٢)؛ فلا يقيم نحو التقدّم و التكامل أي تغيير لمجرد حدوثه.

في اعتقاد مطهري، أنّ هناك إطار معين للتكامل فإذا كانت التغييرات التاريخية والاجتماعية في نطاق هذا الإطار، نستطيع أن نعتبره تقدّماً، و إذا كان خارج هذا النطاق، ليس إلّا زوال و إنحطاط. لكنّ ما هو الشيء الذي يحدّد نطاق هذا الإطار؟ الجواب واضحٌ:

العقل للإنسان دليلٌ جيد، فقد أعطى الله العقل للإنسان كي يعرف به طريق الكمال من طرق الانحراف. وضع البشر يدلّ على أنّهم أحياناً يصلون إلى الطريق الصحيح بهداية العقل، و أحياناً يسيرون في طرق الإنحراف بسبب الخطأ و الجهالة و الأهواء. (همان: ٤٤)

يشرح مطهري بإسهاب دراسة مفهوم التقدّم و التطور بأنّها تتكون من ثلاث زوايا مختلفة، أو في الحقيقة نستطيع البحث فيها و دراستها من خلال ثلاثة طُرق مختلفة:

أولاً: التقدّم في المجال العلمي والفنّي: في رأي مطهري، إذا كانت دراسة التقدّم والتطور في شتّى المجالات مشفوعة بالشك و الإلتباس، ففي المجال العلمي و الفنّي هذه الدراسة

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:42 IRDT on Monday August 31st 2020

لا تقبل الشك و الإلتباس بل تكون واضحة ناصعة. إنّ الأستاذ بصورة واضحة يعتبر تغييرات العلوم الطبيعية في العصر الحديث ضامنة للمزيد من المعرفة الدقيقة و العميقة، و بما أنّ هذه المعرفة من أسباب الهيمنة على الطبيعة يعتبرها من ضمن التطوّر. (٣:٥٣٥) أيضاً يعتني بالتكامل في الفنون و تفعيل آليات البشر كنتيجة لهذا التقدّم العلمي:

لاشك أنّ الإنسان تقدّم في تفعيل الآليات تقدّماً مدهشاً. ... و قد تطوّر البشر في الإبداع الفني و إبداع الآليات إلى مرحلة متقدّمة محيرة؛ ... لاشك أنّ الإنسان قد توصّل في آليات الحياة إلى أعلى حدّ في التقدّم، و من المتوقّع أنّ يكون كذلك في المستقبل؛ هذا التكامل، مرهونٌ بتكامل تجارب البشر و تكامل علم البشر (العلوم التجربية) لأنّ البشر تقدّموا في مجال العلوم التجربية، و علوم الطبيعة، و استطاعوا أن يسخّروا الطبيعة لخدمتهم. بعبارة أخري تقدّم البشر في تعاملهم مع الطبيعة، و كلّما تقدّم البشر أحسنوا إستخدامهم و تسخيرهم للطبيعة أكثر فأكثر. (٢٥:٥١٤)

في العديد من الحالات الأخري كان مطهري أيضاً يذكر التطورات العلمية والفنّية في العصر الجديد تحت عناوين كالتقدّم، و الترقّي، وحتى في حالات تكاملية. (على سبيل المثال انظر: ٤:٥٣٩؛ ١٥:٦٥٦؛ ١٩:١١١؛ ٢٠:١٨٣؛ ٢١:٢٧٣) وفي مواقف أخرى يتحدّث عن تطورات في حقل العلوم الإنسانية – بالتحديد علم النفس – و قد ساعدت في إستيعابنا و فهمنا لمعنى بعض المفاهيم المذهبية. (٢٣:٢٣٠) و الجدير بالذكر أنّ مطهري تنبّه إلى بعض الاضرار و العيوب في مسيرة العلم الجديد. كما يعتقدُ على سبيل المثال، أنّ رؤية فرانسيس بيكن بالنسبة للعلم مع أنّها تؤدي لمزيد من هيمنة البشر على الطبيعة، إلّا إنّها سببٌ في فساد البشر» (٢٣:٢٤٩) و في مكان آخر، يتحدّث عن مشاكل تخصص العلم وتصنيفه (١٣:٧٧٨). لكنّ في المجموع، هذا التنبؤ والاهتمام كان هامشياً ولم ينتج عنه اختلاف جذري في إعتقاد مطهري بالنسبة لقضية التقدّم في حقل العلم.

ثانياً: التقدّم في البنية و منظمات المجتمع: في الوقت ذاته، من وجهة نظر مطهري نستطيع أن نتحدّث عن نوع من عملية التقدّم و التطوّر في بناء المجتمع. المتمثلة في مواضيع مثل التعقيد، والتمايز وتقسيم العمل قبل كل شئ. فهو في هذا الحقل، يستخدم مصطلحات متداولة لدى المؤمنينَ بالتكامل في القياس بين الكائن البيولوجي والمجتمع:

المجتمع من جهة التنظّيمات، يشبه الكائن الحي الذي كلّما كان أبسط وأصغر يتكوّن من أعضاء أقل؛ و كلّما تكامل يصبح أكثر تعقيداً من حيث الأعضاء و الأجزاء، فتكثر وظائفه وأعماله المختلفة. و من هذا المنطلق لاشك يتكامل المجتمع البشري. (٣:٥٣٥)

من المؤكد العنصر الرئيسي في هذا التقدم هو التقسيم الاجتماعي للعمل. في تيار تحضّر الإنسان المتزايد، وُجِدت عملية التخصص و تقسم العمل، فانتشرت هذه العملية و بلغت ذروتها في تطوّرات العالم الجديد:

البنية الاجتماعية تحوّلت من بساطتها الأولى إلى صورة معقّدة. بنية المجتمعات البدوية، و المجتمعات القبليّة بسيطة جدّا. (٢٥:٥١٦) شخصٌ واحد رئيس القبليّة و يكون له عددٌ قليلٌ من الأفراد؛ أحياناً رئيس القبيلة يقوم بتقسيم العمل بينهم، و لو أنّ هناك لا يوجَد إلّا قليل من الأعمال. لكننا نشاهد كلّما تقدّم العلم والفن، كثُرت التقسيمات في المجتمع، و زادت الأعمال، و زاد عدد أعضاء المجتمع. (٢٥:٥١٦)

كما أنّ مطهري كان على علم ببعض الآثار السلبية بالنسبة للتخصص و تقسيم العمل، و أعتبرها سبباً في إيجاد

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:42 IRDT on Monday August 31st 2020

الاختلاف بين أفراد المجتمع، و عائقاً أمام تحقق روح التعاون الجماعي، و في نهاية المطاف يحدوث "الاغتراب" (١٥:٦٧٦)، لكنّه في إستنتاجه النهائي يرى بأنّ هذا التغيير يجب أن يعتبَر تقدّماً، فلا يراه مخدوشاً.

ثالثاً: التقدّم في الأبعاد الإنسانية و الأخلاقية: يعتقد مطهري كما أنّ قضية التقدّم في المجالات العلمية و التقنيّة و البنية الإجتماعية تُعتبَر من البديهيات المسلّمة، فقضية التقدّم في المؤشرات الأخلاقية و الإنسانية أيضاً قابلة للتأمّل و التشكيك. و ما يعزّز هذا الموقف هو مثل هذا التطوّر حتى في منشأ فكرة التقدّم كان مطروحاً للنقاش بشدّة:

هل في القضايا الإنسانية، في القضايا الأخلاقية، في المشاعر الإنسانية، و في العلاقات الإنسانية أيضاً كذلك؟ مثلاً إذا جعلنا العدالة و الظلم من ضمن المعايير هل يقلّ ظلم البشر على البشر أو يكثر؟ هنا وبشكل قاطع لا نستطيع القول [بأنّه يقلّ] فقضية الأخلاق الشخصية نفسها: قضية هيمنة الإنسان على نفسه، و قضية رهن الإنسان لنفسه و المقصود أن تكون مواهب الإنسان العالية رهينة مواهبه الدانية، و هذا ما نطلق عليه بعبودية الشهوة. من هذه الناحية هل تكامل البشر المعاصر بالمقايسة مع البشر القديم؟ هنا لا نستطيع [أن نؤمن بتكامل المجتمع بشكل قاطع]. هذا و قد اختلف الأوروبيون في هذه القضية، فمنهم من يعتقد أنّ البشر و لو تقدّموا في القضايا المادية لكنّهم لم يتقدّموا في القضايا المعنوية، و منهم من يقول أنّ البشر لم يتحرّكوا على الإطلاق، والبعض يعتقد بتخلّفهم. (١٥:٢٣١) كما أنّ البشر تقدّموا في آليات التقدم و في البناء والمنظمات الإجتماعية بصورة عظمية، هل استطاعوا أنّ يتقدّموا في العلاقات الإنسانية الحميدة مع البعض أم لا؟ ... مثلاً هل تقدّم البشر في روح التعاون بالنسبة للآخرين؟ يعني هل البشر المعاصرين بالمقارنة مع البشر القدماء يشعرون بروح التعاون بتجاه الآخرين؟ هل تقدّم الشعور بالمسؤولية و فهم هذه المسؤولية تجاه الآخرين بتلك النسبة؟ هل تقدّمت المشاعر الإنسانية بالنسبة للآخرين بتلك النسبة؟ هل في الواقع عُدِم استغلال البشر للآخرين؟ هل تغير الشكل لكنّ المعني ازداد إلى درجات؟ هل قلّ اعتداء البشر على بعضهم؟ هل تقدّمت هذه القضايا كما تقدّمت الآليات و كما وُجِدت البنية الإجتماعية و تنوّعت؟ أم لا، بقيت هذه القضايا على هيئتها الأولى؟ أو هناك من يدّعي أنّ هذه القضايا لم تتقدّم بل انّها تقهقرت فقط. بعبارة أخرى هل تقدّمت القيم الإنسانية بصورة كليّة و ما يعتبَر معياراً للإنسانية بتلك النسبة؟

تُوجَد هناك آراء مختلفة في هذا الصدد. البعض يتشائمون و ينكرون تقدّم البشر في هذا المجال جملة و تفصيلاً، لأنّهم يقولون إذا كان معيار التقدّم، الرفاهية و السعادة فمن الصعب أن نعدّ ذلك تقدّم. (٢٥:٥١٨)

إنّه في هذا المجال يتطرّق إلي بيان و شرح الرؤي و المواقف المختلفة. و استنتاجه النهائي يميل إلي عدم قبول التقدّم و التطور في حقل الأخلاق و الإنسانية:

هل تقدّم المجتمع في مجال القيم الأخلاقية كما تكاملت فيه جزءان أو ثلاثة أجزاء؟ لاشك لم يشهد تقدّماً بهذه النسبة و لم يدّعِ أحدٌ ذلك و لو قال أحدٌ «ليس فقط لم يتقدّم بل تخلّف في هذه المجالات» برأينا لم يجانب الصواب بكلامه هذا. (١٣:٧٧٥)

طبعاً مطهري في مواقف أخري يذكر أنّ تقدّم و تكامل المجتمع البشري "ذا أبعاد" (٢٥:٥١١) و من هذا المنطلق لا يستطيع أن يتجنّب أهمّ وجوه الحياة البشرية كالجوانب الأخلاقية، و الثقافية، و الإنسانية. لكنّ ما حدث في الغرب خلال الآونة الأخيرة لا نستطيع أن نعتبره ضماناً للتعالي و التقدّم في حقلي الأخلاق و الإنسانية:

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:42 IRDT on Monday August 31st 2020

طبعاً لا نقول بأنّ البشر لن يصلوا إلي التكامل ذات يوم، نحن أكثر تفائلاً منهم، و أملنا بالمستقبل أكبر، لكنّنا لا نعتقد "بالوصول للتكامل" في مثل هذه الظروف الموجودة. (١٣:٧٨٠)

فمن منظار ديني يعتبر الانطلاق و المقصد النهائي للتاريخ تكاملاً في شتّي المجالات، لكنّ في الوقت ذاته بما أنّ هذا الأمر يتحقق من خلال حركة البشر و عملهم، وبما أنّ البشر كائنٌ مختارٌ أيضاً، فلا يري هذه الإنطلاقة ثابتة و متوازنة:

نظراً إلي أنّ السبب الرئيسي في هذه الحركة هو البشر نفسه، و البشر كائنٌ مختار و حر، فالتاريخ يتأرجح و يتقلّب في حركته؛ أحياناً يتقدّم إلي الأمام و أحياناً يتراجع إلي الخلف، أحياناً ينحرف يميناً و أحياناً إلي اليسار، أحياناً ينطلق بسرعة و أحياناً ببطء، و أحياناً يبقي لفترة واقفاً دون حركة. فالمجتمع ينحطّ كما يسمو و يتقدّم. (٢٤:٤٢٩)

وفقاً لهذا نستطيع الحصول علي النتائج المتوخاة عند الأستاذ مطهري بالنسبة لشرح و بسط المجالات الثلاثة للتقدّم: يؤكّد مطهري علي الاختلاف بين الإنجازات العلمية و التقنيّة للجوانب الأخلاقية و المعنوية في الغرب الحديث.

لأنّ الحالة الأولي تعتبر في الجهة العملية الشاملة للتقدّم و التكامل التاريخي، لكنّ الحالة الثانية ليست كذلك. كان الأستاذ يعتقد بأنّ في ظل يقظة قوّتي التمييز و النقد لعقل البشر يتاح لنا كي نستطيع أن نميز بين "مظاهر التطوّر و التقدّم" – الناتجة عن تفتّح قوّتي العلمية و الفكرية للبشر – و بين "مظاهر الفساد و الانحراف" – الناتجة عن الإنحدار و التردّي. (١٩:١٠٤)

لكنّه في مكانٍ آخر، بعد أن يميز بين مفهومي "التكامل" و "التقدّم"، يتطرّق إلي تبيين هذا البحث (مع قليل من الاختلاف). في هذا التمييز مفهوم التطوّر أو التقدّم نفسه يتخلّى إلى حدٍّ ما عن المعنى الإيجابي و يحمل مفهوماً سلبياً.

هل التقدّم نفس التكامل و التكامل نفس التقدّم؟ هناك اختلاف جذريّ بينهما. انظروا إلى حالات استخدامهما. نحن نتحدّث عن مرضٍ، هذا المرض في حالة تطور، لكنّنا لا نقول في حالة تكامل. إذا كان جيشاً يحارب في أرضٍ ما و يحتلّ جزءاً من أراضي العدو، نقول هذا الجيش في حالة تقدّم، لكنّنا لا نقول في حالة تكامل، لماذا؟ لأنّ في مفهوم التكامل يكمن نوعاً من التفوّق، يعني التكامل مشفوع بالحركة لكنّها حركة عموديّة نحو الأعلي. التكامل، حركة من الأسفل إلي الأعلى. لكنّ التقدّم يصدق أيضاً في المستوى الأفقي. أقول هذا ليكون معلوماً إذا شكك بعض العلماء في إطلاق التكامل على بعض القضايا، فرأيهم لا يجانب الدقّة و الصواب. مع إنّنا لا نتّفق معهم في الرأي لكنّهم انتبهوا إلي نوعٍ من الدقّة. إذن التكامل يختلف مع التقدّم و حتي مع التنمية أيضاً. التنمية و التقدّم لهما معني واحد تقريباً. (٢٥:٥١١-٥١٢)

في الحقيقة، من وجهة نظر مطهري "التقدّم" العلمي و التقني الحديث في الغرب لا يعتبر "تكاملاً" لأنّه لم يكن مشفوعاً بالتفوّق الأخلاقي و الإنساني. و التكامل مؤهلٌ لنوعٍ من التقييم الجيد، فلا نستطيع أن نعتبر التطورات العلمية و التقنيّة ناتجة عن هذا الأمر. لكنّ في نفس الوقت يوجَد في هذا التلقي نوعٍ من الغموض و التعقيد حيث وجوده مع سائر الحالات الموجودة في أعمال مطهري يسبّب صعوبة في الفهم و الاستيعاب.

الدرجة الأولي: بما أنّ في تلقّي الأستاذ مطهري من الانجازات العلمية الحديثة، هذه التطوّرات تؤدي إلي مزيد

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:42 IRDT on Monday August 31st 2020

من المعرفة الدقيقة بالنسبة للحقائق الطبيعية و حتي البشرية، فلا نستطيع أن ننفي هذا التطوّر بصورة كليّة و نعتبره فاقداً للجهة، بل من الطبيعي أن نعتبره ذا جهة متكاملة.

من جهة أخري: يشير بأنّ هذه التطوّرات العلميّة و التقنيّة تؤدي إلى زيادة الراحة وتحسين سبل العيش للبشر و هذا الأمر كان من الأهداف العامّة و المشتركة طيلة التاريخ و في عرض الثقافة و الجغرافيا. (٨٢٠-٨١٩:١٣) و لو في استطراده للبحث يؤكّد أنّنا لا نستطيع أن نعتبر زيادة رفاهية البشر دليلاً علي بلوغهم المراحل النهائية من الكمال (همان: ٨٢٣) لكنّهم مع قبولهم الرفاهية كهدفٍ عام، و دور العلوم و التقنيّات الجديدة في نشرها، يقرّون بوضوح بأرحب مكانة من تغيير غير مؤثّر للتطورات العلمية في العالم الجديد.

شريعتي؛ صراع الإخلاص و الحضارة

قضية التاريخ و انطلاقته تتبوّأ مكانة هامة و مصيريّة في النتاج الفكري للدكتور علي شريعتي. يعتبر لدي شريعتي إستيعاب حقيقة التاريخ، و انطلاقته، و مكانتنا و موقفنا الراهن في هذا المسير، من أبرز مكوّنات الوعي الفردي و الجماعي. من هذا المنطلق، من الطبيعي أن ترتبط أكثر أفكاره حول التاريخ بالمفاهيم الرّنانة كالتقدّم و التكامل و التطوّر.

لكنّ استيعاب نظرة شريعتي لفكرة التقدّم و التكامل من خلال أعماله تتّسم بكثير من الغموض و الصعوبة و التعقيد. الصعوبة تعود إلي وجَود نزعتان متضادة و غير منسجمة لديه مما جعل رأيه و مقصوده النهائي في هالة من الظلام. في الحقيقة، إحدى هاتين النزعتينِ ترحّب بفكرة التقدّم في روايتها الأساسية بمثابة حقيقة واضحة و بديهية، و النزعة الثانية ترفضها من الأساس و حتي أنّها تقوم بتفكيك المفاهيم الحديثة كالتقدّم و التطوّر.

وفقاً للنزعة الأولي، يعتبر شريعتي تاريخ البشر ملحقاً و خطّاً واحداً، فيه مسيرة تصاعدية باتجاه التقدّم. و هذا يعني أنّ طيلة هذه المسيرة التاريخية، هناك شيئاً واحداً (أي الحضارة البشرية) دائماً في حالة تطوّر و تقدّم. تاريخ البشر ليس فقط مسيرة مستمرّة، بل في نفس الوقت "متكامل". (٥: ١١) إنّه في حالات، يطلق علي هذه الحركة المتقدّمة "إنطلاقة تكاملية لنوع البشر" (٢٠:١٠) لكنّ ما يمكن لنا أن نجزم القول فيه هو أنّ التقدّم و الصعود من مؤشرات الحضارة البشرية. كما أسلفنا سابقاً، شريعتي يعتقد بخط واحد للحضارة البشرية، و ينتقد ضرب التخصيص كالحضارة الإسلامية، و الحضارة الغربية، و ...:

الحضارة عبارة عن ممثل لعامة الناس ... الحضارة عبارة عن مجموعة من الودائع و الخزائن المعنوية و المادية طيلة تاريخ البشر... إذن لا نستطيع أن نقول الحضارة الإسلامية و المسيحية أو الشرقية و الغربية، بل يجب أن نقول حضارة القرن ١٧، ١٥، ٥ لأنّ الحضارة لا تتعلق بفئة خاصة من البشر بل بالبشرية جمعاء. (١١:١٤)

من هذه الناحية، واضحٌ أنّنا نواجه انطلاقة تراكمية و تصاعدية في حضارة البشر و ما تحقّق الآن في الغرب يكون أعلى مرحلة لانطلاقة التاريخ. و على هذا الأساس، يعتقد شريعتي أنّه إذا كانت حضارة المسلمين تسير في طريق حضاري صحيح ولم تتأثّر بـــ "الفلسفة اليونانية" و "العرفان و التصوف الهندي"، لتحقّقت النقطة الراهنة للحضارة الغربية في تلك المرحلة:

كان [تأثير نشر الفلسفة اليونانية، و العرفان و التصوف الهندي] كالتالي: عندما كان الشرق، و الحضارة الإسلامية، و علي الأخص مجتمعاتنا و تاريخنا سيّما في إيران أكثر من أي وقت آخر عبر التاريخ، كان لهم حظ

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:42 IRDT on Monday August 31st 2020

وافر أن قاموا في المشرق بصناعة تلك النهضة التي حدثت في أوروبا أي الرنسانس، و اشتهر أبي علي سينا و أبي سعيد أبي الخير و الحلاج و أمثالهم – من الحكماء و العرفاء– في القرن الثاني و الثالث، يكون عندنا دكارت، و فرانسيس بيكن، و كبلر وغاليله، حيث رجعت الحضارة الف عام إلى الخلف، و بدل أن تحدث هذه النهضة قبل ألف عام في الشرق، حدثت في الغرب بعد الف عام، ونحن بقينا متخلّفين. (٣١:٤٢)

مرّة أخري بناءاً علي هذا يجعل شريعتي هذه الطريقة في فهم التاريخ أساساً لنوعٍ من وصايا النهج السوسيولوجي في علم الاجتماع:

عالم الاجتماع من أجل أن يتوصّل إلي هيئة البشر في بداية التاريخ يحتاج إلي الأقوام البدوية المتوحشة في العصر الراهن. إذن فقط بدراسة الإسكيمو أو الأقوام البدوية في استراليا، و المحيط الهادئ، و وسط و جنوب أفريقيا يمكن معرفة الجذور الجغرافية و الإقتصادية و الطبيعية للمذهب، و التفكّر، والتكامل، و تشكيل المجتمع، و الفئة، و المؤسسات الاجتماعية الأساسية في البشر البدائي أي في بداية التاريخ. وفقاً لهذا فالمجتمع القبلي المتوحّش الذي يفتقر للمسلك، و الثياب، و السكن نموذجٌ يقاس به البشر في بداية التاريخ .(١٢:٩٨)

و عند شريعتي أيضاً، ما يفسّر قضايا التقدّم و التعامل التاريخي أكثر من أي شيء آخر، هو التطوّرات العلمية و التقنيّة:

القضايا العلمية لها مسيرة مضبوطة و متكاملة ذات وتيرة واحدة، و لاشك أنّ العلم في القرن العشرين أكثر تقدّماً من القرن التاسع عشر، ولاشك أن أوروبا أكثر تقدّماً من الشرق في الجوانب العلميّة. (٢٠:١٠)

أهمّ دليل على هذا التقدّم، الإمكانية التي وُجِدَت في ظلّ هذه العلوم للإستثمار و الهيمنة على الطبيعة. فشريعتي يعتبر العلم الجديد ضماناً لتحرّر البشر من معتقل الطبيعة و الجغرافيا.(٢٥:٤٢) إنّه يعتقد أنّ العلم و التقنيات الحديثة، ساعدتنا في الهيمنة على العالم و تسخير الطبيعة، يتيحان لنا إمكانية التغلّب على الفقر و الضعف و قهر الطبيعة، و يمهّدان الطريق للتكامل المعنوي وكشف الحقائق و علو الإنسان. طبعاً تناول تجربة الغرب الحديثة، لكن لم يؤدِّ التطور العلمي – التقني، و الرفاهية و الراحة النابتحتان عن هذا التطوّر إلي مثل هذه النتيجة، (علي سبيل المثال أنظر إلى: ٥:١١٩) لكنّ أخذ هذه الإنجازات و تكميلها بروح معنوية و حقيقة شرقية ودينية يراه لازماً لإيجاد وضع مناسب. وهذا يعني أنّ التطوّرات العلمية و التقنية في العصر الحديث و نتائجها العلمية، نفسها تُعتَبَر خطوة لازمة لتكامل و ازدهار المجتمع البشري. و يمكننا أن نرى هذه النظرة جيّداً في العبارات التالية:

لا يُوجَد أيُّ دليل يثبت أنّ المجتمع الذي يطّلع على الحب، و عرفان الروح، و إشراق القلب، و التمتّع باللذات الأخلاقية و المعنوية الطاهرة لا يستطيع أن يقود الجرّارة بدل المحراث، و لا يستطيع أن يركب الطائرة بدل الهودج، و يترك المصباح الفتيلي و يستخدم المصباح الكهربائيّ. ليس فقط إمكانية تحقّق هذا الأمر بل المسؤولية و المثالية البشرية تُجمع على هذين الأمرين. فتكتمل البشرية عندما يطّلع الإنسان على سمو القلب و عروج الروح، فيحلّق بالطائرة، و يصعد إلى الفضاء و يسافر إلى النجوم. مثل هذا الإنسان له جدارة أكثر، و سوف يكون طيرانه و صعوده نحو السماء من أجل التكامل والسعادة البشرية أكثر فائدةً.(همان:١١٨)

هذه النظرة الإيجابية بالنسبة للإنجازات العلمية في العصر الحديث وصلت إلى حدّ يُبحَث فيه عن الإمكانية التي

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:42 IRDT on Monday August 31st 2020

جعلوها من أجل استيعاب أفضل و أدقّ للدين و التعاليم الوحيانيّة، فضلاً عن النتائج العلمية لهذه الإنجازات في الهيمنة علي الطبيعة:

بما أنّنا مسلمون، ففي ظل تكامل الفلسفة و العلم، و الحضارة و الثقافة تكتمل معرفتنا بالنسبة للتوحيد، للعالم و معرفة الإنسان في الإسلام، و يجب أن تكتمل هذه المعرفة، و من أجل هذا يجب عليّ أن أفهم التوحيد و القرآن الكريم أكثر من فيلسوف عاش في القرن الثاني و الثالث؛ أين ذاك الزمن و أين الإنسان المعاصر؟! عندما يقول القرآن «خلق الإنسان من علق»، فالعالم الذي عاش في القرن الثالث أقلّ استيعاباً مني لمفهوم هذه الآية لأنّني اطّلعت على العلوم الحديثة. (٣٢-٣١:٢١)

من وجهة نظر شريعتي، حضارة العصر الجديد، ليس فقط في «قمّة التكامل الفلسفي –العلمي– التقني»(٢٠:٤) بل أنّها من حيث المناسبات و البنية الاجتماعية تنتج عن مسار تكاملي. و هذا الأمر قبل كل شئ يقترب من مفهوم "العقلانية". و معنى هذا الأمر أنّ العلاقات العقلية و الواعية تحتل مكان المناسبات الغريزية و العاطفية وفقَ مسار تكاملي في المجتمع.(٣١:١١٣) من هذا المنطلق، فالوظائف المختلفة التي كانت تُنَفّذ سابقاً من قبل مجموعة واحدة (الأسرة)، أصبحت توزّع الآن بين مؤسسات متعدّدة و منفصلة. طبعاً شريعتي يعرف جيّداً أنّ هذا المسار لاشك يؤدي إلى تضعيف "نحن" الجماعية، لكنّه اعتبر هذا الأمر من النتائج التي لا مندوحة منها في التحضّر.

حتى الآن اتّضحت لنا فكرة التقدّم و التكامل التاريخي من جانبٍ عند شريعتي فإنّها من القواعد الأساسية لقراءة التاريخ و فهمه. لكنّ كما أسلفنا آنفاً، تُوجَد في عمله نزعة مختلفة تماماً و حتى متضادة لا تتفق مع الفكرة المذكورة. من هذا المنظار، فإنّنا نجد في عمله أصول "التملّص الحضاري" أو حتى "الرفض الحضاري" حيث تنتفي إمكانية فهم التاريخ بمثابة مسار متكامل و متصاعد.

من جهة أخرى نستطيع أن نعتبر آراء شريعتي في هذا الحقل متأثّرة بالأفكار المعجبة بالطبيعة كأفكار روسو، و أيضاً مراحل التاريخ من منظور ماركس حيث ارتبطت في نفس الوقت بنظرته و إعجابه الديني. في روايته يبدأ تاريخ البشر بفترة ذهبية: «الفترة الهابيلية». خصائص فترة ماقبل التحضّر بصورة تامّة تنطبق على الفكرة الأولى لماركس. في الفترة الهابيلية يتمتّع جميع البشر من الإمكانيات الاجتماعية و الإنتاج الاقتصادي بصورة متساوية؛ لأنّ الإمكانيات الإقتصادية أولاً تُستعار من الطبيعة و ثانياً النظام الجماعي ليس فيه تعقيد، و جميع الفئات تكون متساوية فيه. في هذه الفترة يكون الإنتاج الطبيعي (الصيد و التجميع)، إمّا لا تُوجَد آلة إنتاج و إمّا بصورة ضئيلة، لا يُوجَد تقسيم في العمل و في النتيجة تتشكّل مجتمع متساوي خالي من الاختلافات الطبقية لكنّ هذه الفترة الذهبية انتهت بتغلّب قابيل على هابيل و يبدأ "العصر القابيلي" لتاريخ البشر. الخصائص التي يشير إليها شريعتي في تبديل الفترة و المجتمع الهابيلي إلى الفترة و المجتمع القابيلي، في الواقع هي نفس المسارات العامّة للتقدّم و التكامل الحضاري: الإنتاج يخرج من الحالة الطبيعية إلى الحالة الاصطناعية. تتعقّد آليات العمل و لهذا السبب يُوجَد التخصص و النظام الاجتماعي المتخصّص. تعقيد المجتمع و حلحلة التضاد بين الموجود و غير الموجود، من أسباب ظهور العلاقات القانونية. إضافة إلى ذلك من الضروري لزوم التشخيص و التدبير الداخلي و الدفاع الخارجي لاستقرار وجود الحكومة. (١٢٠-١١:١١٧)

وفقاً لما جاء في الإحالات الهامّة لقصة هابيل و قابيل من نظرة الدينية، يعتقد شريعتي أنّ بداية الحضارة هي بداية

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:42 IRDT on Monday August 31st 2020

الظلم و العدوان. مع بداية عملية التحضّر، ينتهي عصر البساطة، و الخلوص، و المساواة. و يبدأ عصر التعقّيدات، و التناحر، و اللامساواة، و الإستغلال. و من ذلك الوقت تتجدّد المناسبات القابيلية في صور و أشكال مختلفة، و تصبح أكثر تعقيداً، و تفاقماً، و تجذّراً. لهذا، من هذا المنظار إذا شاهدنا في مسار التاريخ انطلاقة نحو التقدّم، فهذا التقدّم يكون نحو الظلم و العدوان، بعبارة أخرى القصة الأساسية في التاريخ، ليست تقدّم و تكامل بل زوال و تقهقر و انحطاط.

بوسعنا أن نشاهد ظهور هذا التلقي بالنسبة للحضارة في فقرة من خطبته الرّنانة «نعم، هكذا كان الأخ»:

جميع الأعمال العملاقة التي صنعت الحضارة طيلة التاريخ، صُنِعت على عظام أسلافي.

جدار الصين و جميع الجدران و البروج و العمارات و الآثار العظيمة لحضارة البشر، كلّها وُجِدت هكذا. صخرة صخرة علي لحم و دم أجدادي.

أرى، أرى بأمّ عيني أنّ الحضارة تعني اللعنة، تعني الكراهية، تعني التعذيب و السوط، الاستغلال، الانتقام، الجلاد، الشهادة، الفساد، لشهوة، الأنانية و العبودية و ... أخيراً، بناء ثلاث طبقات من الظلم في آلاف السنين على عاتق أخواتي و إخواني... . (٢٢:٨)

كما أن من وجهة نظره أنّ التطوّرات و التقدمات في العصر الحديث هي أيضاً في الحقيقة ناتجة عن عمليتي الاستعمار و الاستثمار المتشابهتين و حتى فكرة التقدّم تساهم أيضاً في هذا الجانب:

إذا كان التقدّم قيمة، فقليلٌ من يشكّك في هذا الأمر بأنّ أجدر نظام هو الرأسمالية الخاصة و الاستثمار في هذا الطريق قد أثبت جدارته و سيثبتها.

مدح "التطوّر"، ميزة الروح و ثقافة بورجوازية و ملحمة كبيرة للأنظمة المستعمرة، الرأسمالية و الابتهال الخاص بمذهب عبادة القدرة و المال؛ و التاريخ – و حتى الجغرافيا أيضاً – يشهد بأنّ تحت شعار "التطوّر" طالما تُسحَق و تُنسَي هذه الحقيقة، و العدالة، و الحق، و هؤلاء الناس الجياع، المنهوبون و المستولى عليهم يكونون ضحية و حتى يمكن أنّ القيم الإنسانية تضمحل، و تتشوّه، و تتلاشي تحت دبّابة التطوّر القاسية – التي انطلقت بصورة مدهشة و جنونية و سحقت كلّما اعترض في طريقها. (٨٢-٢٤:٨١)

طبعاً يمكن لنا أن نتناول الثنائية المذكورة في تلقي شريعتي بالنسبة لمفهوم التقدّم في التاريخ بصورةٍ تُرفع فكرة التجاوز أو عدم الانسجام. و هذه الصورة هي إنّنا يجب أن لا نعتبر موضوع مسارات التقدّم و التكامل التاريخي من جهة، و الإنحطاط و الزوال من جهة أخرى على وتيرة واحدة. في الحقيقة، هذا يعني أنّ شريعتي يتابع مساري الصعود و النزول موازيينِ معاً في التاريخ فموضوع الأول الحضارة (أكثر في اتجاهاتها العلمية و التقنيّة) و موضوع الآخر المناسبات الإنسانية.

بهذا الفهم نستطيع أن نعتبر عمله قريباً من مطهري من حيث تفكيك مسيرة التطوّرات التقنيّة من التحولات الأخلاقية و الإنسانية. هذا الأمر يصبح ذا معنى على الأخص عندما يتحدّث أيضاً عن وجوب تبديل التقدّم بالتكامل. (٢٤:١٢٧) في الواقع أنّه أيضاً وفقاً لسياق مطهري، بالتعبير عن عملية نمو التطوّر إلى "التقدّم"، يجدها خالية من أيّ قيمة و في قبال ذلك النمو في الجوانب الإنسانية و الأخلاقية يعتبره "تكاملاً":

"التقدّم" و "التكامل" مفهومان مختلفان؛ التقدّم مرادفٌ للتنمية و التكامل مرادفٌ للتصاعد؛ التقدّم له مفهوم كمّي أكثر و التكامل كيفي؛ التقدّم يعتني بالقدرة و إمكانيات

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:42 IRDT on Monday August 31st 2020

الإنسان أكثر ، و التكامل بالحقيقة و صفاتها الوجودية؛ التقدّم له مفهوم إعتباري و خارجي و التكامل اصولي و ذاتي؛ التقدّم يحكي عن نمو المجتمع و التكامل عن نمو البشر. (همان: ٨٢)

في استطراد هذا الفهم يعدّ شريعتي المجتمع (أو الحضارة نفسها) موضوعاً للتقدّم، و البشر موضوعاً للتكامل:

المجتمع و البشر لا يفترقان عن بعضهما البعض؛ لكنّ منحنى نموهما ليس دائماً متناسقاً. الاختلاف الأساسي بين نظام التربية و التعليم في الثقافة المذهبية القديمة و الثقافة البرجوازية الجديدة تكمن هنا، ففي ذلك النظام القديم يعتمَد على نمو البشر، و في هذا النظام الجديد على نمو المجتمع، و لهذا نرى في المجتمعات الضعيفة القديمة كثيراً من الأرواح العظيمة و الإنسانية المتعالية و القيم الأخلاقية، و الآن، خلافاً لذلك، فمنحى التطور نحو «المجتمعات القويّة و الأرواح الضعيفة». (همان:٨٣)

و لو أنّ هذا الفهم يبدو تمهيداً مناسباً لإيجاد نوع من الانسجام و التلاحم في أعمال شريعتي، لكنّ يجب أن نقول بأنّ جزءاً من تعابيره و إشاراته في هذا السياق غير متناسقة. في الحقيقة، يبدو لنا من بعض تعابيره أنّ زوال و انحطاط المناسبات التاريخية ليست فقط مطروحة في طريق التاريخ، بل إنّها نتيجة حتمية لعملية التحضّر و التطوّر. ففي هذا الاتجاه من رؤية شريعتي أنّ الحضارة و التقدّم لم يكونا عملية غير فعّالة حتى نستطيع أن نقارن بين رؤيته و ما أسلفنا من إيضاحات حول أفكار مطهري.

نستطيع أن نربط الثنائية المذكورة من جانب آخر بمقتضيات سنخين في أعمال شريعتي. و هذا يعني أنّنا نواجه الاتجاه الأول (أي النظرة الإيجابية للتقدّم و الحضارة) في أعمال شريعتي التحليلية و التحقيقية، و الاتجاه الثاني (أي النظرة السلبية للتقدّم و الحضارة) في أعماله الخطابية و الشعرية. لكنّ هذه الإيضاحات أيضاً في اختبار المصاديق تواجه الإبهام و التشكيك. على سبيل المثال جزءٌ هامٌّ من اتجاهات رفض التحضّر يمكن لنا أن نبحث عنها في كتابٍ كـ "تاريخ الحضارة" (مجموعة أعمال ١١) الذي يعتبَر في زمرة الأعمال التحقيقية و التحليلية.

ختاماً نستطيع بصورة رسمية أن نتعرّف على هذه الثنائية في الاتجاه نحو فكرة التكامل و التقدّم، و نستوعبها بمثابة صدى لثنائية أعمق في وجود و نظر شريعتي.

الحضارة الإسلامية و فكرة التقدّم

الانتباه و التأكيد على العصر الذهبي للحضارة الإسلامية (الذي يُطلق على القرن الثالث حتى نهاية القرن السادس) من أبرز المضامين المكرّرة في أعمال مطهري و شريعتي. (على سبيل المثال أنظر إلى: مطهري، ٣٥٨-٣٤٩:١؛ ١٩٨:٣؛ ١٣٦:١٤؛ ٢٨٣:١٧ و شريعتي، ١٢-٨:٢٨؛ ١٠:٢٩؛ ٣٠١:٢٩؛ ١٦:٣١) الالتفات إلى الحضارة الإسلامية من جانبهما في الغالب يعود هذا السبب الأساسي إلى أنّهما في الإلحاح على مجدها و عظمتها يقصدان إحياء معنويات العزة و الثقة بالنفس في المجتمع الإسلامي. لكنّ في الوقت ذاته هذا الالتفات و التمجيد للحضارة الإسلامية في أعمال مطهري و شريعتي، أحياناً يكون ذا جانبٍ ضمني يساعد على استيعاب نوعية نظرهما لفكرة التقدّم و التكامل التاريخي. في هذا الجانب الضمني كلاهما يعتقدان أنّ الحضارة الغربية الحديثة – في الجوانب العلميّة و التقنيّة – امتداد للحضارة الإسلامية و صورة متكاملة لها.

في الحقيقة التأكيد على الدين الأوروبي و الحضارة الأوروبية الحديثة لتراث الحضارة الإسلامية، بصورة ضمنيّة، يدلّ علي معرفة هذين الأمرين في استمرارية تاريخية

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:42 IRDT on Monday August 31st 2020

و مسيرة تكاملية واحدة، فمن الطبيعي هذا المتأخر يكون في قمّة هذه الاستمرارية. حيث يوجَد في أعمال مطهري لمحات عديدة تكشف عن هذا التلقّي:

الإسلام نفسه مؤسس لحضارة عظيمة، و في تاريخه المشرِّف أحدث المجتمعات و قدّم عباقرة للعالم و ساعد العلم و الحضارة. [و خلال قراءة تاريخ الإسلام] سوف نطّلع على القيم العظمى و المشرِّفة لخدمات الإسلام التي قدّمها للحضارة البشرية، و على الديون الجسيمة لإوروبا الحديثة تجاه الحضارة الإسلامية. (مطهري،١٦:٢٩)

لاشك في هذا الحديث أنّ المسلمين مرّوا بفترة عظيمة و مُفخِرة في التاريخ، ليس من هذا الجانب أنّهم كانوا يحكمون العالم في فترة من الزمن، و على حد قول الفقيد اديب الممالك فراهاني «أخذوا من الملوك رشوة و من البحر أمواجاً» – لأنّ العالم شهد حكّاماً و غزاة كثيرين فرضوا أنفسهم على الآخرين بالقهر و القوّة و سرعان ما تبدّدوا – بل من هذه الجهة أنّهم أحدثوا نهضة و تحوّل في جميع أنحاء العالم و شيدوا حضارة عملاقة و عظيمة استمرّت عدة قرون و أخذت تضئ طريق البشرية؛ الآن أيضاً تُعتَبر من الحلقات المضيئة لحضارة البشر و يفتخر بها تاريخ الحضارة. لقد تفوّق المسلمون خلال عدّة قرون على جميع العالم في العلوم و الصناعة و الفلسفة و الفن و الأخلاق و التنظيمات الاجتماعية العامّة و أخذ يستجدي الآخرون قليلاً من فيضها. الحضارة العظيمة و المحيّرة الحديثة في أوروبا التي أذهلت العيون و أدهشت العقول و تسيّطرت اليوم علي العالم بأسره، بشهادة و اعتراف الباحثين الغربيين المحايدين، قبل كلّ شئ تأثّرت بالحضارة الإسلامية العظيمة. (همان، ١:٣٨٤)

هذا الجانب في أعمال شريعتي أكثر وضوحاً و صراحةً. أسلفنا سابقاً أنّه يشير إلى دخول الفلسفة اليونانية و التصوف الهندي في الحضارة الإسلامية، و يعتبره عائقاً للحضارة الإسلامية في سبيل التوصّل إلى ما تحقّق حوالي ألف سنة بعد في الحضارة الغربية الحديثة.(شريعتي، ٣١:٤٢) في مكانٍ آخر، إنّه يناقش هذه النظرة في باب التحولات المدنيّة في الحضارة الإسلامية:

[المجتمع الإسلامي] تقدّم في مساره نحو المحدودية المتزايدة في الزراعة و تربية المواشي و التنميّة المدنيّة و التطوّر في الحياة البرجوازية. إذن من منظور التغيير و التكامل التاريخي، [المدنيّة] لعبت دوراً أساسياً كعاملٍ للتقدّم و لولا هجوم اتراك ماوراء النهر، و الغزنويين، و السلاجقة، و التيموريين، و المغول، و ... – الذين فرضوا الفئودالية و العبودية – لكان في الإسلام خلال القرن الثالث و القرن الرابع (القرون ٩ و ١٠ و ١١ الميلادية) نفس البرجوازية المتقدّمة في إوروبا خلال القرن الثامن عشر. المدنيّة سببٌ في الحركة و القفزة نحو الأمام. كانت عندنا في الإسلام مدنٌ لا يُوجَد مثيلها في أوروبا خلال القرون الوسطى؛ ... .(همان، ١٠:٧٤)

لكنّ في بحوث شريعتي، تبعاً للازدواجية المطلقة الحاكمة عليها، أحياناً يتطرّق إلى فترة قمة الحضارة الإسلامية باعتبارها انخفاض للحقيقة و الهوية العقائدية و الإيدلوجية الإسلامية. (٢٤:٨٣)

التفسير الديني للتاريخ

من القواسم المشتركة الأخرى في أعمال شريعتي و مطهري هي أنّهما مع قبول فكرة التقدّم و التكامل التاريخي (و لو بصورة مرهونة و ملاحظات خاصّة)، يعتقدان بنوعٍ من الفلسفة التاريخية الدينيّة موازاةً لها و هذا لا ينافي الفكرة المذكورة.

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:42 IRDT on Monday August 31st 2020

عند مطهري التفسير الديني للتاريخ له طابع فلسفي. يعتقد مطهري أنّنا في النهاية نواجه في التاريخ تكاملاً شاملاً و ذي أبعاد مختلفة. (٢٤:٤٢٣) وفقاً لهذا التفسير، المسيرة التكاملية للتاريخ أمرٌ لابدّ منه. لأنّ التاريخ، مثل الطّبيعة، من خلق الله و مظاهره، و محكومة بالسنن الإلهية. من هذا المنطلق

وفقاً للنظرية الإلهية، للتاريخ نفسه غاية و هدف؛ كما أنّ للطبيعة هدف، فالتاريخ له هدف أيضاً، يعني ينطلق التاريخ نحو التكامل و الكمال البشري، و للتاريخ معنى و هدف. (١٥:٤٠)

لكنّ هذا التكامل لايحدث بواسطة عملية جبرية و تلقائية، بل يحدث من مسيرة إرادية و عمل اختياري للبشر. لهذا السبب عملية التكامل بالضرورة لم تكن متناسقة و مستمرّة في مسيرها حتى يمكن أن تصطدم بوقفات، و جمود و حتى تقهقرات. مطهري يعبّر عن غاية هذه العملية التكاملية بـــ "تحرّر البشر".

البشر منذ القدم كلّما دار عليهم الزمن و في الإصطلاح أخذ في التكامل، كان في هذا الاتجاه (خلافاً لرأي الماركسيون)؛ بصورة تدريجيّة كلّما تحرّروا كثيراً من الظروف الطبيعية و الإجتماعية – يعني أن يكونوا تابعين لظروفهم الطبيعية – انطلقوا نحو أصالة الفكر و الإيدلوجية، أي نحو جهة تخطّط لهم الإيدلوجية، و خاتمة هذه المسيرة التكاملية هي أنّ تكامل البشر ليس تكاملاً تقنياً بل تكاملاً بشرياً، و التكامل في الجوانب البشرية يكون في النهاية كلّما تقدّم المقياس إلى الأمام يزداد تحرّر الإنسان من الظروف المادية و الإجتماعية – أي من أن يكون متأثراً بها – و يكثر تعلّقه بالإيمان و الإيدلوجية. (١٣:٢٧٣)

التاريخ يصنعه عمل و إرادة الإنسان، لكنّ في الوقت ذاته العالم أيضاً لم يكن محايداً بالنسبة لحقيقة و جهة العمل و الإرادة. إذا كان البشر يخطون نحو الكمال و الإصلاح و التقوى، و بتعبير آخر، في طريق رضاية الحق و التقرّب إليه، يكون أسلوبهم متناسقاً مع العالم، و للعالم ردّة فعل موافقة لهم، يعني العالم يؤيدهم و يضمن بقاءهم، و إذا انطلقوا بالعكس في جهة مخالفة يكونوا كعضو في الجسم غير متناسق مع سائر الأعضاء و عندما يكون هناك عضو غير متناسق مع الأعضاء الأخرى في الجسم سوف تتخلص منه طبيعة الجسم و تقضي عليه. (١٥:٢٠٥) لهذا السبب، ينطلق التاريخ في المجموع نحو غاية محدّدة، و سوف تتحقّق هذه الغاية و الهدف النهائي ، في ظل التفسير الديني، مع ظهور موعود الأمم.

لكنّ عند شريعتي التفسير الديني للتاريخ يقترن بالمضامين الإجتماعية و السياسية أكثر. و جاء تقرير تامّ بالنسبة لهذا التفسير في كتاب "حسين، وارث آدم" (مجموعة الأعمال). فقد أسلفنا آنفاً، أنّ شريعتي يتحدّث عن فترتين هابيلية و قابيلية في تاريخ البشر. من جهةٍ أخرى، أنّه لا يرى صراع هابيل و قابيل كبداية للتاريخ بل بداية لتكوين خطّينِ و تيارينِ في التاريخ. الجهة الأولى التيار الهابيلي، و الجهة الأخرى التيار القابيلي:

الحرب بين جبهتينِ، قطبينِ، قطب الله و قطب إبليس، جبهة مرسلي الناس و جبهة الملأ و المترف و الراهب، في حالة استمرار و اصطدام و نزاع في كلّ مكان، الحرب طالما تكون مستمرة و منتشرة، منذ آدم أي من بداية البشر، إلى نهاية التاريخ، أي تحقّق العدالة العالمية و الفوز الحتمي للناس، و الحريّة، و العبادة، و تدمير الاستبداد السياسي و الاستغلال الاقتصادي، و التعصب المذهبي. هذان الصفّان في كل مكان و طوال التاريخ تحاربا وجهاً لوجه – الحق و الباطل، العدل والظلم، التوحيد و الشرك،

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:42 IRDT on Monday August 31st 2020

الإيمان و الكفر، الناس و الملأ، و المستضعف و المستكبر – سلسلتينِ وراثيتينِ أيضاً كانت لهما الزعامة و القيادة للجناحينِ: هابيل و قابيل، إبراهيم و نمرود، موسى و فرعون، يحيى و هيروديس، عيسى و قيصر، محمد و قريش، خسرو و سزار (كسري و قيصر)، علي و معاوية و ... الآن ... حسين و يزيد!

و غداً ... حسينيون آخرون و يزيديون آخرون .... (١٩:٢١)

يرى شريعتي هذين الخطّينِ دائمينِ في التاريخ و يشبّههما بنهري دجلة و الفرات إذ يفترقان في نقطة الانطلاق فكلّ منهما يستمرّ في طريقه، و في الختام مرّة أخرى يلتقيان. (السابق:٢٧– ٢٨) ففي الواقع، بما أنّ هذه الثنائية و التضاد الناتج عنها لا تنطبق مع «البنية التحتية للوحدة التاريخية» (٦٨: ٢٣) فلا يمكن لها الاستمرار و الدوام و في خاتمة المطاف مع تغلّب التيار الهابيلي ستنتهي إلي الوحدانية.

طبعاً هو يعتقد بخصيصة طبقيّة لتضاد هذينِ الخطّين، فيبتعد بتفسيره عن التفسير المتعارف عليه للتاريخ. (٢٩: ١٩) لكنّه في الوقت نفسه يسعى أن يبيّن حدوده مع التفسير الماركسي:

طوال التاريخ منذ زمن هابيل و قابيل إلى آخر الزمان، فلسفة تاريخ الإسلام على الأخص عند الشيعة مبنيّة على الإنتقام و لا تُوجَد فلسفة تاريخية أكثر حيويّة، و نشاطاً، و مسؤولية و تقدّماً منها. فلسفة تاريخ الماركسيّة مبنيّة على مقتضيات التغيير و التحوّل لآليات الإنتاج، و فلسفة تاريخنا على أساس الوعي، المسؤولية، التعهد، الجهاد، و التعبئة لبني هابيل إلى آخر الزمان من أجل نتقام أبينا من بني قابيل؛ و الإيمان بحتميّة وصول الانتقام إلى الهدف في آخر الزمان. عجباً! كلاهما يعتقدان بالجبر: نحن نعتقد أنّه يُوجد في آخر الزمان و يتحقّق العدل و الحق في حياة البشر؛ إنّهم أيضاً يعتقدون بالجبر لكنّ جبرنا على أساس رغبة الإنسان و إرادته و وعيه، و جبرهم على أساس مقتضياته في العلاقات الاجتماعية التي هي وليدة آليات العمل؛ يعني هناك يعود مصير التاريخ إلى الأسباب المادية التاريخية العمياء، و الاجتماعية، و الإقتصادية، و التي ليست في متناول يد الإنسان، في وقت أنّ فلسفة تاريخ الإسلام تنطلق من نطاق شعور البشر، و إرادته، و وعيه، و قراره. إذن تختلف نوعية الجبر: إنّه يقول القوانين المادية تصل هناك قهراً، نحن نقول شعور البشر، إرادته، و قراره من أهمّ الأسباب التي ستجرّ العمل قهراً إلى هناك. هذا الجبر الوحيد الذي لا ينافي اختيار البشر، إذ كان الآخر يبحث عن نهضة مطالبة للحق خارج نطاق الإنسان و دور البشرية. (١٢٤–٢٣:١٢٣)

نتائج البحث

قراءة أفكار الأستاذ مرتضى مطهري و الدكتور علي شريعتي بالنسبة لفكرة التقدّم و التكامل التاريخي نستطيع أن نعتبرها تمهيداً آخر لفهم و استيعاب تلقّيهما لحقيقة التجدّد و الحضارة الغربية الحديثة. بالرغم من الاختلافات الموقفية و الفروق النظرية، يُوجَد إقترابٌ عميقٌ في رؤية هذينِ المفكّرينِ المعاصرينِ في مجال الدين. المحور الرئيسي لهذا الاقتراب هو "القبول المشروط أو المحدّد" لفكرة التقدّم.

هذا القبول المشروط نلمسه في أفكار مطهري أكثر مصداقية ووضوح. اما لدى مطهري فنحن نواجه مساراً عامّاً لتحول البشر و تكامله و هذا بالتأكيد يكون متناسقاً و مستمراً. فما تحقّق حتى اليوم، و على الأخص في ظل تطوّرات العصر الحديث في الغرب، يُعتبَر مؤشراً واضحاً للتقدّم في شتّى الجوانب العلميّة، و التقنيّة، و التنمية في المجتمع. لكنّ هذا الأمر ليس غير مقارن و متوازٍ لتكامل

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:42 IRDT on Monday August 31st 2020

الأبعاد الأخلاقية و الإنسانية فقط بل ربّما كان يرافق السقوط و الزوال في هذا المجال.

في أعمال شريعتي تُوجَد نظرة ثنائية تجعله من جهة مادحاً لتقدّم الحضارة الحديثة و من جهة أخرى متشائماً و معادياً لذلك. لكنّه في المجموع، يعتقد أيضاً بعملية التقدّم و التطوّر في حقل العلم، و الآليات، و المؤشرات الحضارية. و لو أنّ البعض يقرن هذا التقدّم و التطوّر بانعدام بعض القيم الحميدةكالإخلاص، و المساواة و...

وفقاً لهذا الاستنباط، يرى مطهري و شريعتي أنّ الحضارة الإسلامية و إنجازاتها فصلاً من فصول قصة التقدّم البشري العامّ، و تصريحاً أو تلويحاً، يعتقد أنّ الحضارة الغربية الحديثة – على الأخص في اتجاهاتها العلميّة و التقنيّة – صورة متقدّمة و متطوّرة لها.

هذا الاستنباط من مفهوم التقدّم و التكامل التاريخي في خضم الصراعات الايديولوجية خلال عقدي ١٣٤٠ و ١٣٥٠ يوفّر إمكانيات معيّنة لمطهري و شريعتي؛ قبول أساس فكرة التقدّم و التكامل من جانبهما، تصون الفكر الديني من انحرافات فكرية كالرجعيّة، و الظلاميّة (على الأخص في تلك الفترة المذكورة كانت لها تأثيرات مدمّرة). في نفس الوقت هذا الاتجاه يجعلهما قادرينِ علي التعامل مع العالم الجديد و تطوّراته و إنجازاته بصورة نشطة ؛ فمن جهةٍ يمهّد الطريق لدخول الإنجازات العلميّة و التقنيّة (التي كانت تُعتبَر إيجابية) و من جهةٍ أخرى يحفظ الفاصلة الانتقادية بجوانبها الثقافية و الأخلاقيّة.

لكنّ في نفس الوقت، هذه النظرة النقديّة لهما بالنسبة للعالم الجديد تمنع التمعّن في المبادئ و الجوانب الأساسية للحضارة، كما تمنع التعرّض للحقائق و الأسس الوجودية و الفكرية في العصر الحديث، و النسبة بين التطوّرات العلمية و الحضارية في الغرب و بين النزعات و القيم الثقافية. من هذا الجانب نقد العالم الحديث في أعمال مطهري و شريعتي في أكثر الأحيان كان يقتصر على نقد السياسة (الاستعمار) و أحياناً نقد الخُلقيات.

المصادر و المراجع

[١] الهي تبار، علي، «بررسي، مقايسه و نقد آراي استاد شهيد مطهري و دكتر شريعتي درباره علل انحطاط مسلمين»(دراسة، مقارنة ونقد آراء الأستاذ الشهيد مطهري والدكتور شريعتي حول أسباب انحطاط المسلمين)، طهران: نشر معارف، ١٣٩١.

[٢] بولارد، سيدني، «انديشه ترقي» (فكر الترقي)، ترجمة حسين أسد بور بيرانفر، طهران: اميركبير، ١٣٥٤.

[٣] زماني، طوبي، «مطالعه مقايسهاي عدالت اجتماعي از منظر استاد مطهري و دكتر شريعتي از ديدگاه جامعهشناختي» (دراسة ومقارنة العدالة الاجتماعية من وجهة نظر الأستاذ مطهري والدكتور شريعتي من منظور علك الاجتماع)، طهران: بقعة، ١٣٨٩.

[٤] شريعتي، علي، مجموعه آثار (٣٦ مجلد)، طهران: مؤسسه بنياد فرهنگي دكتر علي شريعتي.

[٥] شريعتي، علي، «آري اين چنين بود برادر» (نعم هكذا كان أخي)، طهران: جابخش، ١٣٧٦.

[٦] شريعتي، علي، «انتظار مذهب اعتراض»، طهران : نيايشكران وحدت ، ١٣٨٥.

[٧] شريعتي، علي، «انسان و تاريخ»، طهران: الهام، ١٣٨٩.

[٨] شريعتي، علي، «بازشناسي هويت ايراني–اسلامي» (إعادة معرفة الهوية الإيرانية الإسلامية)، طهران: بنياد فرهنگي دكتر علي شريعتي، ١٣٨٦.

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:42 IRDT on Monday August 31st 2020

[٩] شريعتي، علي، «تاريخ تمدن» (تاريخ الحضارة)، طهران: قلم: ١٣٦٨.

[١٠] شريعتي، علي، «تمدن و تجدد» (الحضارة والتجدد)، طهران: بنياد فرهنگي دكتر علي شريعتي، ١٣٩٠.

[١١] شريعتي، علي، «حسين وارث آدم«، تهران: بنياد فرهنگي دكتر علي شريعتي، ١٣٨٦.

[١٢] شريعتي، علي، «نگاهي به ويژگي‌هاي قرون قديم، قرون وسطي و قرون جديد» (نظرة في خصائص القرون القديمة، القرون الوسطى والقرون الحديثة)، طهران: بنياد فرهنگي دكتر علي شريعتي، ١٣٩٠.

[١٣] صادقي، مهدي، «تحريفات حادثه عاشورا از ديدگاه دكتر شريعتي و استاد مطهري» (التحريفات في واقعة عاشوراء من نظر الدكتور شريعتي والأستاذ مطهري)، اصفهان: شهيد حسين فهميده: كتابسراي سلام، ١٣٨٣.

[١٤] كچويان، حسين، «نظريه‌هاي جهاني شدن: پيامد چالش‌هاي فرهنگ و دين» (نظريات العولمة: نتيجة الجدل الثقافي والديني)، طهران: ني، ١٣٨٦.

[١٥] كچويان، حسين، «تطورات گفتمان‌هاي هويتي ايران» (تطورات خطابات الهوية الإيرانية)، طهران: ني، ١٣٨٤.

[١٦] مطهري، مرتضى، مجموعه آثار (٢٧ مجلد)، طهران: صدرا.

[١٧] مطهري، مرتضي، «اسلام و نيازهاي زمان»، طهران: صدرا، ١٣٨١.

[١٨] مطهري، مرتضي، «تعليم و تربيت در اسلام»، طهران: صدرا، ١٣٨٢.

[١٩] مطهري، مرتضي، «جامعه و تاريخ»، قم: صدرا، ١٣٦٩.

[٢٠] مطهري، مرتضي، «خدمات متقابل اسلام و ايران»، طهران: صدرا، ١٣٦٦.

[٢١] مطهري، مرتضي، «فلسفه تاريخ»، طهران: صدرا، ١٣٨٣.

[٢٢] مطهري، مرتضي، «قيام و انقلاب مهدي (عج)» (قيام وثورة المهدي (عج))، طهران: صدرا، ١٣٨٤.

[٢٣] مطهري، مرتضي، «نبرد حق و باطل (به ضميمه تكامل اجتماعي انسان در تاريخ)» (معركة الحق والباطل(مع ملحق التطور الاجتماعي للإنسان في التاريخ)، طهران: صدرا، ١٣٨٢.

[٢٤] مطهري، مرتضي، «نقدي بر ماركسيسم» (نقد على الماركسية)، طهران: صدرا، ١٣٦٣ (١٤٠٤ ق).

[٢٥] نوروزي، حسن، « زن و شريعت مطهر: زن در نگاه دكتر شريعتي و استاد مطهري» (المرأة والشريعة الطاهرة: المرأة من وجهة نظر الدكتور شريعتي والأستاذ مطهري)، قم: نغمات، ١٣٨٢.

Downloaded from aijh.modares.ac.ir at 10:42 IRDT on Monday August 31st 2020

بررسی مقایسه‌ای تکامل تاریخی از دیدگاه استاد شهید مطهری و دکتر علی شریعتی

دکتر غلامرضا جمشیدیها[۱]، محمد سجاد صفار هرندی[۲]

تاریخ دریافت: ۱۳۹۲/۲/۱۵ تاریخ پذیرش: ۱۳۹۲/٤/۱۵

در این مقاله کوشش شده تا از خلال فهم و تشریح دیدگاه دو اندیشمند مهم معاصر، استاد مرتضی مطهری و دکتر علی شریعتی، نسبت به «ایده‌ی ترقی تاریخی»، فصل مهمی از تاریخ مواجهات فکری ایرانیان با تجدد مورد بازخوانی قرار گیرد. «ایده‌ی ترقی تاریخی»، به مثابه یکی از اصلی‌ترین ارکان اندیشه‌ی اجتماعی مدرن، متضمن قایل شدن به نوعی سیر واحد و رو به صعود و بهبود در تاریخ جامعه‌ی بشری است. طبیعی است که از این منظر، تمدن مدرن غربی پیشرو، پرچمدار و بر فراز سیر مذکور تصویر می‌شود. وحدت تاریخ بشری در اندیشه مطهری و شریعتی به صورت نوعی پیش‌فرض حاضر است؛ اما در نوع تلقی نسبت به ترقی، تفاوت‌هایی وجود دارد. موضع مطهری نسبت به ایده‌ی ترقی را می‌توان «پذیرش مشروط» تلقی کرد. وی ترقی را در حوزه‌های علمی و فنی و نیز ساختار و تشکیلات اجتماعی می‌پذیرد، اما در ابعاد انسانی و اخلاقی مردود قلمداد می‌کند. در مجموعه‌ی آرا و آثار شریعتی ما با دو تلقی ناسازگار یا دست‌کم "به ظاهر" ناسازگار از ترقی و تکامل تاریخ مواجه‌ایم. یکی از این دو گرایش، اندیشه ترقی را در روایت اصلی آن به مثابه‌ی واقعیتی روشن و بدیهی مورد پذیرش قرار می‌دهد و دیگری، آن را از ریشه و اساس منتفی شمرده و حتی مفاهیمی چون ترقی و پیشرفت را (به اصطلاح پست مدرنیستی) "واسازی" می‌کند. در عین حال، هر دوی آنان تمدن اسلامی و دوران طلایی آن را فصلی از فصول کتاب «ترقی و پیشرفت تمدن بشری» قلمداد کرده و نیز به موازات یا در طول ایدهٔ ترقی، به نوعی تفسیر دینی از تاریخ قایل‌اند.

واژگان‌کلیدی:مرتضی‌مطهری، علی‌شریعتی، وحدت تاریخ، اندیشهٔ ترقی، تکامل تاریخی،تمدن‌اسلامی.

---

۱. دانشیار گروه جامعه‌شناسی، دانشکده علوم اجتماعی، دانشگاه تهران.gjamshidi@ut.ac.ir

۲. دانشجوی دکتری گروه جامعه‌شناسی دانشکده علوم اجتماعی دانشگاه تهران.sjjadharandi@yahoo.com